

نودلكه والرواية الشفوية

أ/ كريم بن سعيد طالب دكتوراه

إشراف أ.د. بن سعيد محمد

كلية الآداب والفنون/ جامعة أحمد بن بلة وهران 1

1 - توطئة:

من المستشرقين الذين تناولوا بالدراسة نقد مفهوم الرواية الشفوية في الأدب الجاهلي، المستشرق تيودور نودلكه¹ Th.Nidelke، من مؤلفاته، في سبيل فهم الشعر الجاهلي عام 1864 والشعر الجاهلي الذي صدر في سنة 1921 م، مما ينم عن جدية هذا الكتاب في الاهتمام بتراث الشعر الجاهلي، ففي مؤلفه الأول، الذي جاء على شكل مقالات استقرائية، نقف

¹ - نيدلكه. ت (1836 - 1930) T.H ولد في هاميون من أسرة عريقة، تعلم اللغات السامية والفارسية والتركية والسنسكريتية، نال دكتوراه عام 1856 واصل دراسته ليزيغ وفيينا ولندن، نال جائزة مجمع للكتابات والآداب في باريس عن رسالته أصل وتركيب سور القرآن (1856-1860)، عين إستاذًا للغات السامية والتاريخ الإسلامي دو تنجيز سنة 1881 وأستاذ التوراة واللغات السامية والسنسكريتية ثم الأرامية في كنيل (1884)، وأستاذ اللغات الشرقية في ستراسبورغ (1872-1920) فأتخذ منها مركزا للدراسات الشرقية في ألمانيا.

من تلاميذه زاخاو، ياكوب، بروكلمان، شواهي، كان متبحرا في العربية إلى جانب اللغات السامية والإيرانية والتركية والحبشية والآرامية، كما كان متقنا لليونانية والألمانية والفرنسية والإنجليزية والإسبانية والإيطالية/ يحيى مراد، معجم أسماء المستشرقين، دار الكتاب العلمية بيروت.

فيها على موقف ترسب لدى المؤلف اتجاه الشعر العربي القديم المتداول في الساحة التاريخية للأدب العربي نعت بالأدب الجاهلي.

فابتداءً، نجد أن الكاتب يرى أن القصيدة الإسلامية لم تخرج عن نمطية القصيدة الجاهلية، إن على المستوى الشكلي أو المضاميني، فالافتراض الذي ذهب إليه أن بدايات الشعر الجاهلي كانت أرجازا كلها.

2 - نولد كه والشعر الجاهلي:

ومن أمارات الشعر الجاهلي، الاستهلال الطللي للقصيدة الجاهلية والتي كانت في عهد امرئ القيس، تتسم بالجدة النسبية ويلوح سلطان اجتهاده المحض أن شكل القصيدة الشفوية لم يوغل في القدم، وباجتهاده هذا الذي يراه متقدما على علماء اللغة والآداب في فوارق هرمية القصيدة من شاعر لآخر، وينفي في الأخير توافر بيت شعري نظمئن إلى نصه يعود إلى ما قبل عام 500 ميلادية¹.

يقر الكاتب بعجزة عن الوقوف على المحطة الأولى للشعر الجاهلي، حلقة افتقدت في وصل نسيج الشعر العربي والبدء من ابتدائه، في مقابل ذلك يصبح في حكم المستطاع تحديد نهايته والمعايير التي اعتمد عليها، تبقى متداخلة في تحديد البدايات والنهايات التي لا يمكن تقديرها، كونها استندت إلى الذاتية: كما هو الشأن في كل التقسيمات التاريخية الأدبية تقريبا، فيه شيء من التحكم والهوى والتصويب الموجه إلى هذه الأحكام، هو تداخل في التفسيرات بين العصر السابق والتالي، كما نجد أن النمطية القديمة، بقت جاثمة في غالب الأحيان على كاهل القصيدة العربية فيما لحق من عصور، إلا أن النقلة النوعية للشعر العربي كما هو عليه الشأن كله للحياة الروحية للعرب طبعها يتحول إلى المملكة الأموية الذين ينظر

¹ - السابق، ص: 18.

إليهم على وجه العموم أنهم يمثلون الاتجاه الشعبي الوثني إلى العهد العباسي الذي يرجع فضل تسجيل مبدأ السيادة الإسلامية الفعلية، ويسقط صاحب الدراسة هذه عن عصر من الزمن حدد الأولى منها بأقل من مائتي عام، تظهر أنها تبدو في رواسب أدب هذه المدة الزمنية وهي بدورها تخضع للتقسيم الآتي:

1- يتمثل في عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - وما خلفه من آثار.

2- وهي الآثار التي حق لها أن تضارع أجود الشعر العربي، كتابات: امرؤ القيس، النابغة، الأعشى.. إلخ. التي قابلتها شاعرية كل من: جرير والفرزدق وعمر بن أبي ربيعة الذي ينظر إليه صاحب الرأي على أنه قمة الهرم لأمثاله، من شعر عصره لاعتبارات عدة، منها أنه يعد نموذج الطفرة النوعية للتحويل إلى شعر الحداثة كما أنه يتجسد في الصورة المنمطة للحياة داخل الوسط الأموي، ويعترف الكاتب بعجزه وقعوده دونما بلوغ القصد في تحديد بدايات الشعر الجاهلي، ويذكر لنا من معوقات ذلك عدم الإحاطة بتفاصيل النقد العربي: "إلى أن ذلك يحتاج إلى معرفة بدقائق اللغة العربية"¹ كما يضيف إليه معوقا ثانيا ذكره، هو ما يتمثل في الاستعمال الذي يعقد مهمة الدارس الأجنبي وإن استعان بالدراسات العربية المتخصصة: والاستعمال الشعري، لا يستطيع اكتسابها أي أجنبي"².

وتبقى آماله قائمة إزاء المستشرقين الذي يتناولون بالدراسة، الشعر العربي لاستجلاء ما كان غامضا بالنسبة إليه وتكملة ما بقي ناقصا من فهومات، ومرد ذلك، بعد الشعر العربي عنا زمانيا وجغرافيا من طرح لدى

¹ - السابق، ص: 20.

² - نفسه، ص: 20.

المتخصصين من علماء اللغة للقرنين الثاني والثالث هي معوقات التذهن اللغوي: "وقد أوجدت حتى لعلماء اللغة في القرنين: الثاني والثالث؛ صعوبات في الفهم اللغوي عديدة وكثيرة ما أعوزهم فهمها"¹.

ومما يعمق مشقة إدراك المقطوعات الشعرية، أنها جاءت مجتزأة مبتورة عما قبلها وما بعدها فالصورة التي يوردها السياق التي جاءت عليه لا تكتمل في ذهن المتلقي الصورة المتكاملة من مجموعة صورة، تقضي في نهاية أمرها إلى تقديم المشهد النهائي ضف إلى أن القصيدة العربية مميزة باستقلالية البيت الشعري الذي يبقى معلما قائما لذاته داخل النص الشعري، وفيها كل بيت مستقل لذاته تقريبا² والحيرة يتسع فضاءها بافتقاده إلى البنية والنسيج اللذين جاء عليهما شأن ندلكه الذي يتقدم درجة، من غموض في عوالم الفضاء الشعري: "أما بالنسبة إلينا فمن المفهوم أن مثل هذه الشفرات تكون غالبا في غاية الغموض"³.

لو أتيح للشعر الجاهلي أن يصل إلينا وهو كامل لسهل ذلك تذهن مضامينه؛ لأن ما وصلنا من شعر قديم، يقصد به الشعر الجاهلي - يختلف من منظور الكاتب - عن الشعر الأصيل الأول إلى الكتابة والتقعيد مدة من الزمن وصفت بالطويلة: "فآداب شعب من الشعوب لا يمكن أن تبقى في صورته الأصلية وقتنا طويلا بدون مساعدة الكتابة"⁴.

وان الكتابة تضع حدا لمثل التبديلات التي تعمل على عدم استقرار الموروث الشعري الشفهي.

¹ - نفسه، ص: 21.

² - نفسه، ص: 21.

³ - نفسه، ص: 21.

⁴ - السابق، ص ص: 21-22.

إن الأدب العربي لم يعرف طريقه إلى الخطية إلا بعد مدة زمنية طويلة، تداول فيها الشفاهية واعتمدها كمصدر من مصادر الموروث الشعري، وسيلته في ذلك الاستماع عن راوية احترف هذه المهنة أو من أعرابي كيف ما كان شعره: "بل إن الكثير من القصائد لم يكتب إلا بعد نهاية ذلك العصر لمدة طويلة سجلها عالم من فم راو محترف أو أعرابي أيا كان".¹

وكانت جبلة، غدت تقليدا حتى بالنسبة للمتصلعين في شؤون الأدب تمثلت في تواتر النص الشعري عن طريق الرواية المسموعة: " وحتى في مدارس العارفين بالأدب بقيت عادة نقل القصائد بالرواية الشفوية غالبا"²

مع الاحتياط الشديد برفض اعتباطية التغيير، وهو ما بدت معالمه قائمة واضحة عند نشوء المدارس النحوية زمن العباسيين؛ أما فيما سبق هذا العهد فقد طبعه.... جانب الجدية في تعاطي الشعر الجاهلي، فقد سلكوا مسلكا يتسم بالاستهتار وعدم المسؤولية³، لأن التناقل الشفوي وما يفضي إليه من تغيير وتبديل يسهم بطريقة أو بأخرى للنيل من الشعر الأصلي، وينسحب عليه الحكم نفسه للآداب الشعبية للأمم الأخرى؛ لأنها اعتمدت على الذاكرة، والذاكرة وحدها كرافد من روافد تناقل الشعر الجاهلي، لا تكون رسولا أمينا في الاحتفاظ بالنص الأصلي، دون أن يصاحبه فعل المكتوب، حتى لو كانت هذه ذاكرة العرب المطبوعة بالقوة وسعة الحفظ، ذلك أنه مهما يكن من قوة الذاكرة عند العرب... فإن أقوى

¹ - نفسه، ص: 22.

² - نفسه، ص: 22.

³ - نفسه، ص: 21.

الذاكرات لا تستطيع أن تحول دون حدوث تغييرات تدريجية قوية فيما يحفظ¹، وهناك عامل آخر له صلة بثراء اللغة العربية وسعة وعائها، وهو ما أدى إلى تبديل الجملة أو المفردة بغيرها عن قصد أو دونه، مما حدا ممن أسهموا في رواية قصائده، ذو الرمة يشكو من أن الناس كثيرا ما أفسدوا رواية القصائد بأن وضعوا عبارة من نفس المعنى والوزن مكان سهر الليالي في الظفر بها²، بوضع عبارة لها معنى والوزن نفسها بدل عبارة: سهر الليالي، وهو ما جعله يوصي بتوظيف الخطية حفاظا على سلامة النص، ومن جهة ثانية فإن الاختلالات التي طالت مبنى القصيدة الجاهلية تشجع على إسقاط بعض منها أو تبديل في بعض منها تسلسلا يدل على اعتباطية بناء القصيدة الجاهلية، ورود أكثر من رواية للنص نفسه كالاختلاف الذي وقع بين المدرسين مع تسجيل اختلاف في الأبيات نقصانا وزيادة وكذا تباين في تسلسل الأبيات للوحدات.³

3- آراؤه في الرواية الشفوية للشعر الجاهلي:

يدعم الكاتب رأيه بحجج إضافية، وهو سهولة في التصرف في القصيدة في الاستهلاكات الغزلية - بعضها -، أهملت لعامل التشابه، كما أن هناك عاملا آخر، وهو ما تجلّى في أعمال ذوق واضعي المصنفات الشعرية المتأخرة الذي أسهم هو بدوره في تجزئة القصيدة الشعرية بزعم منهم، أنهم انتقوا أجود الشعر الجاهلي، مما عزز فرضية إسقاط كثير من القصائد الأخرى، ذلك ما يسلط الضوء على الكم الهائل للمقطوعات الشعرية في النظام هذا⁴ لم يعد على وجه القلة جمع بعض المقطوعات

¹ - السابق، ص: 22.

² - نفسه، ص: 22.

³ - نفسه، ص: 23.

⁴ - نفسه، ص: 23.

المنفردة التي ترجع في نشأتها إلى مصادر تختلف عن بعضها ؛ إذا
ضمها قواسم مشتركة كالقافية والوزن والمضمون كذلك، فحصول ذلك وقع
من قبيل السهو والغفلة، ومثال على ذلك ما جاءت عليه قصيدة امرئ
القيس في أربعة أبيات منها " 48-51 في نشرة أرنولد"¹.

وكان من رأي السكري، أن رجح انتسابها لتأبط شراً² كما نجد أن
البيت الشعري نفسه يتداول بالنص ذاته في قصيدتين للشاعر الواحد نفسه
أو لشاعرين يختلفان فنجد أنفسنا - والحال كذلك -، أمام أكثر من افتراض،
أما أن السياق لا يستقيم في إحدى المناسبات أو أن الخلط صادر عن
الراوي مع انتقادنا لمواطن ارتكاز؛ إن داخلها أو خارجها، تقضي بنا إلى
تحديد مواطن الفصل الأصلية في النص الشعري³، إلا أنه في بعض
المناسبات تتوافر على بعض الأمارات تحصل في اتحاد حر في كل من:
العروض والروي في حال حدوث ذلك سيكون من الأدلة التي تأخذ بأيدينا
إلى إفضاء السطر الأول الموقف الذي يكون استهلال قصيدة جديدة، وهو
ما يؤول بنا إلى أن كثيراً من القصائد، جاء فحواها يوحد بين مجموعة من
الأجزاء تختلف فيما بينها، لا يتاح لنا اليوم بحثاً أن نركز إلى طبيعة
الفصل فيما بينها⁴.

هناك عامل يضاف إلى ما تقدم أصاب الشعر الجاهلي العربي،
كونه ملكاً مشاعاً لشعب استعمر رقعة جغرافية مترامية الأطراف، وهو
ذلك التبديل الذي لحق لغة القصائد الشعرية بالرواية الشفوية عن طريق

¹ - السابق، ص 24.

² - نفسه، ص: 24.

³ - نفسه، ص ص: 24-25.

⁴ - نفسه، ص: 25.

التغيير الذي لحقها عن عرب وعجم الأمر الذي فعل فعلته بحكم عامل الزمن، كما كان للتأثير اللغوي الذي تبتدئ عند الكتابة بالفوارق الحاصلة على المستوى التقعيدي في الأزمنة التي جاءت بعد رسول الله - صل الله عليه وسلم - كالا استدلال على ذلك بيت امرئ القيس:

فاليوم أشرب غير مستحقب إثمًا من الله ولا واغل¹

إن التفسير أمامه ظروف لفظية خاصة عند التقيد فتجلى في افتقاد وإلى الأبد الحركات الثلاث (الفتحة، الضمة، الكسرة).²

نجد عاملاً آخر ساهم في إحداث التبدل على المستوى اللغوي، وهو ما تمثل في الدين، إن ظاهرة التدين لم تكن مشاعة بدرجة تشتد إلا أنه في الوقت ذاته لا يمكن إبعادها بصفة كلية كظاهرة اجتماعية في العصر هذا؛ لأنه ثبت بالدليل المحسوس، وجود قصائد جاهلة تشير إلى التبعد الوثني³، وهو ما دفع بالمسلمين التصرف في النص الشعري وبالإضافة: "..... نجد فيها الآن لفظ "والله" وكان في الأصل "والله" (واللات)⁴.

كما يضيف الكاتب إمكانية إقحام الأفكار الإسلامية في فضاء الشعر الجاهلي، ومنه يصل إلى تحريات ذاتية، وهو ما رآه في انتحال قصائد شعرية بأكملها أو بدس في مناسبات أخرى "أبيات كان بدافع الوعظ أو المحاضرة أو الفخر بقبيلة أو ذمها"⁵ أو بإملاء من المناسبة المحاضراتية أو هو وازع الفخر أو الذم للقبيلتين.

¹ - نفسه، ص: 26.

² - السابق، ص: 26.

³ - شرح الحماسة، ص، ص: 486، 13.

⁴ - عبد الرحمن بدوي، دراسات المستشرقين، ص: 26.

⁵ - نفسه، ص: 27.

وهو ما أفضى، إلى وضع قصائد أقحمت إلى الأصلية وانتسابها إلى شعراء جاهلين ذوى ذيع وحيث كبير من صنع رواة المحاكاة والنسج على منوال القصيدة الجاهلية وشعراء ما قبل الإسلام: "... واعتقدوا أن أبياتهم جديرة بأن تهمل اسم شاعر قديم"¹، يدلل بقصيدة للنابغة الذبياني، من إخراج وطبع دي ساسي فيما اقتناه من شعر جاهلي، البيتان هما (22- 23) لفرضية عدم ملاءمة أسلوب الخطاب لمقام الملك سليمان، مؤسس مدينة تدمر وعدم مجارة الشعراء العرب لمألوف خطابهم:

ولا أرى فاعلا في الناس يشبهه ولا أحاشي من أقوام من أحد
إلا سليمان، إذ قال الإله له قم في البرية فاحذوها عن الفند

وخيس الجزافى إني قد أذنت لهم في احتمالية حذف بيتين فإن ذلك لا يحدث أثرا سالباً في السياق بينون تدمر بالصفاح والعمل.²

ومرد الاعتراض، كائن في الاستناد للملك سليمان فالاستثناء هنا يرفضه ملك مسلم فما بالك بأمير جاهلي؟ علاوة على قرينة أخرى. ويواصل نودلكه تقفي الآثار التي يلتبس فيها سبيل بلوغ مراميه، يرى ذلك في تضمين القصائد الجاهلية معاني إسلامية في إقحام الأسطورة القرآنية، مما يوحي بالشك في أصلها.

ويعود إلى الإقرار بتوظيفه أساطير، ك: "عاد" في محمول شعر جاهلي ثبت صحته: "وإن كان من مؤكد أن أسماء مثل "عاد"... إلخ توجد في أشعار قديمة صحيحة حقاً."³

¹ - نفسه، ص: 27.

² - السابق، ص، 28.

³ - نفسه، ص: 28.

إن محاور التغيير هذه، لامست النص الشعري الموغل في القدم بدرجة أكثر الذي نسج في وقت متأخر فيه، وهو ما يفسر الفارق الناتج عنهما بإعمال الرواية الشفوية عملها في الشعر ردها من الزمن الأول أبلغ من الثاني وذلك باحتساب عنصر الزمن كمنشئ للفوارق بينهما: "الذين لم تنقل قصائدهم بالرواية الشفوية زمنا طويلا"¹.

ما صان الشعر المتأخر عن الأول، هو رعاية أصحابه وتعهدهم له بالحفظ وتنشيط الذاكرة الخصبة التي رعت ذلك واتخذت له مكانا قصيا عن التحوير والانتحال؛ أما التغيير الحاصل في الفضاء الشعري الجاهلي مددا من الزمن قد تطول ! فهو مأُستقى، من مختلف الروايات التي تناولت بالحديث الأكثر ذيعا في مملكة الشعر الجاهلي، ألا وهو امرؤ القيس فالتفتيش في إحدى رواياته من مجموع رواياته الكثيرة، يرشدنا إلى الحدود التي نأت به عن الحقيقة، فالأبيات تغير ترتيبها والحجم نفسه نجده في أكثر من قصيدة، زد على وصل مقطوعات شعرية بعضها بعضها في شكل قصائد تتباين، والاستشهاد فيما روي عن السكري أن ظاهرة النحل لحقت كثيرا من الشعر الجاهلي: "نجد أيضا كثيرا من الأشعار المنحولة"².

وبتفحص الأدلة السابقة، بالتفتيش في النص الشعري الجاهلي وتحديدًا، أساليب القول لمجموعة من الشعراء تختلف في الانتماء. قبلنا فالنتائج ستؤول بنا من اليقين إلى الرجحان عن مصدر القصيدة الجاهلية التي ننوثرها اليوم حيث أن نصيبا معتبرا منها ليس لمن نسب إليهم: " هذا لا يمكن أن يكون صحيحا، فهذا لا يمكن الشاعر قد قاله فعلا"³، مع

¹ - نفسه، ص: 28.

² - السابق، ص 29.

³ - نفسه، ص: 28.

الاعتراف من جانب آخر بنسبية هذه النتائج وعند تعدد متن الرواية للقصيدة الواحدة أمكن لنا أن نقف على ترتيب صحيح لها، كما أتيح لنا في الوقت نفسه، انتحال الزائف من شعرها والحاصل ليس في مقدورنا، القفز على ما بين أيدينا من رواية منقولة، فالفترة الزمنية تقدر بالطول ما بين تأليفها وكتابتها.

ضف إلى أن ما وصلنا من شعر جاهلي يعد قليلا، لا يؤهل دراستنا اللغوية إلى فرز الفروق اللغوية والتعبيرية عند الشعراء الجاهليين، لإرجاع النص اللغوي إلى وضعه الأصلي.

لما تقدم من تعديل، فلا سبيل لدارس الشعر القديم إلا الاعتماد على الرواية العلمية المكتوبة للأصمعي أو السكري ونحوهما، وفي المواقف الأخرى وبالتحقيق نصل إلى ما وضع من شعر ونسب إلى الأصلي، يستدرك الكاتب بعد الاطمئنان إلى هذه الاستنتاجات والتخريجات لاعتبارات عدة منها: انعدام الرواية الشفوية الأولى قبل المدونين للنص الشعري على الصورة والكيفية التي جاء عليها، كما أن هذه الرواية النقدية لا تنمو في ذاتها من إيراد شعر يخالطه الوضع، لم يحقق الاعتراف، بالمقابل، هناك من الروايات التي خضعت للشروط العلمية اللغوية، على يد علماء المدارس النحوية، فحصل لها بذلك التقدير السابق: "بينما نجد لدينا روايات يحققها النحويون القدماء بعناية وعن معرفة دقيقة بالغة فكانت لها قيمة عالية جدا"¹. فاحتمالية العودة بالنص إلى فضائه الأصلي وطبيعته الأولى، فإن منطق شطط الرأي هو الراجح في ذلك، وهو الذي سيفرض نفسه؛ لأن ذلك سيتعارض مع منطلق الطرح الفيزيولوجي، لصعوبة الاهتداء والاطمئنان إلى الرواية الأصلية في

¹ - السابق، ص: 30.

طبعتها الأولى: "فإنه ينبغي عليه ألا يتوهم أنه أصبح أمام النص الأصلي للقصيدة كما أنشدت مثلاً في سوق عكاظ أو في قصر الحيرة لأول مرة"¹.

ويؤكد الكاتب عجزه، بعدم الاهتمام إلى الرواية الصحيحة من بين الروايات المختلفة التي أحاط بها في أكثر من مخطوط ومما زاد الأمر تعقيداً، الشروح التي أضيفت قد تكون لنصوص غير التي ألحقت بها، ضف إلى ما صدر عن النسخ من تهاون وعدم جدية، والوضع كذلك فليس من سبيل المتاح للناشر غير الاختيار. وخير دليل على ذلك "لامية العرب"².

وما صدر من حكم على النص الشعري الجاهلي، فهو ينسحب بالدرجة نفسها على الرواية ذاتها، ما تعلق بشأنها أو السياق التاريخي وما حيق بها، من أحداث لصلة رابطة بينهما فلم تتج هي الأخرى من التحوير: "مثلما حدث لنص القصائد كذلك حدث مراراً للروايات المتعلقة بنشأة وظروف نظمها التاريخية"³. إننا نجد، أن كما معتبرا من القصائد تختلف في من نسبت إليهم من شعراء، فأنت تجدها مرة لشاعر وطورا آخر لغيره من الشعراء، مع ثبوت مجموعة من النصوص الشعرية لا يمكن أن يستقيم الأمر لمن نسبت إليهم وإن حدث ذلك، فهو بدافع الإلهام ليس إلا! كما أنه ليس بممكن، أن يكون الأعراب على دراية بقائل القصيدة، ومن المتاح بقدر كبير لجامعي الشعر الجاهلي أن يحصل لديهم، ذلك الخلط بين واضعي الشعر فيما تم لهم من حفظ لهذا الشعر، كما قد يتجاوز هذا الخلط صلب القصيدة إلى القصيدة نفسها وقد يكون

¹ - نفسه، ص: 30.

² - نفسه، ص: 31.

³ - نفسه، ص: 32.

لبعض النقود التي لم تتوخ الموضوعية والتحري أن تنسب شعرا مغمورا لشاعر مشهور. وفي السياق هذا ورد على سبيل الرواية أن من علماء أهل الكوفة يتزعمهم قائدهم، حماد الرواية، حصل لديهم الاختلاف فيمن ينسبونه إليه آخر شعر كان أعرابيا مصدره رواية شفوية، فغلبوا الاحتكام إلى الذاتية فصلا في الموضوع والإشكال بقي قائما، في أن نسبة هذا الشعر كان لطرفة بن العبد، ينبني على أساس الإقناع¹، لكن السؤال يقوم حول، ما إذا كانت الأسباب التي استندوا إليها في نسبة القصيدة إلى طرفة بن العبد أسبابا مقنعة حقا؟²، ومن التخريجات التي جاءت على وجه الاحتمالية عند الكاتب، أن التحكيم كاد يكون لصالح الشاعر أقل ذيعا وصيتا إذا كان بين شاعرين يختلفان وبخاصة إذا كانا يتحدان في الاسم ذاته؛ لأن دواعي المزج بينها تمليها طبيعة الفهم.

إن ما تعلق بكثير من الأخبار التي لها صلة بتسليط الأضواء حول قصيدة ما، يعود لمطابقة الفهم في حيز من القصيدة وتحديدًا، إذا اعتمد معيار التفسير الحرفي السطحي الضيق، وهي أمثلة ساقها صاحب كتاب الأغاني ومن تعداه في الضرب هذا، فيما يتعلق بتناول حكايات الشعراء الجاهليين يرجع إلى إسناده في الفهم والمعنى، وهو أمر له أشباه في الآداب القديمة، أمر طال حتى الكتاب المقدس "يراجع المرء مثلا الأخبار الخرافية عن سوء فهم ما ورد في الآيتين رقمي: 1، 94 من سورة القمر وكذلك كثيرا من قصص "الهجاء.. من النص المقدس"² نجد ضربا آخر في السياق هذا في قصيدة لامرئ القيس والتي مستهلها:

¹ - السابق، ص: 32.

² - نفسه، ص: 33.

لا تسلمني يا ربيع، لهذه وكنت أراني قبلها بك واثقا¹

يتمثل ملخص روايتها؛ أنها نسجت على المنوال نفسه لقصة "جنقياق" حتى جانب الأساليب استرق كثيرا من الأنسجة فهو يحكي الطريقة التي أراد بها والده قتله بواسطة المسمى "ربيع"، الذي احتال على والده، بأن قدم له عيني ظبي للتقرير، ينضاف إلى ما تقدم، ما روي عن الكيفية التي مات عليها الشاعر فيما أخذ عنه في بيته الشعري الوارد عنه قبيل وفاته، فالأمر كله يعزي إلى سوء تقدير في الفهم ترتب عنه ما علق بالأذهان تواترا، أخطاء نجمت عن عدم الإدراك، وهو شأن الأخطاء التي جاءت تذكر حياة الشاعر امرئ القيس وإن اختلفت فالمورد واحد.

وعلى وجه العموم، فإن تاريخ حياة هذا الشاعر الأمير تألف معظمها من قصص ذات مصدر متشابه لهذا². وعدم التعاطي الصحيح مع النص الشعري يجد له مثالا ناصعا في مؤلف الحماسة في قصيدة نسبت إلى كبير الهذلي، فإن عدم التعاطي هذا ولد نفسا مصطنعا في الفضاء الشعري للقصيدة لا يجد لدى الكاتب أي تصديق لقبوله والاطمئنان إليه.

ثم ينتقل، نهاية مداخله بالتعريح للحديث عن اسم "المعلقات" التي عنونت بها كبرى وأشهر القصائد الشعرية، فهو يصنفها بالخرافة "المعلقات السبع"³ ويذهب به زعمه، إلى أن تقييدها ومحوها تثبت منذ زمن بعيد ويقدم استشهادا يعزز رأيه نحو، يوكوك في كتابه Specimen⁴ مع إبداء

¹ - نفسه، ص: 33.

² - السابق، ص: 33.

³ - نفسه، ص: 34.

⁴ - نفسه، ص: 35.

جانب التحفظ والشك إزاءها كما يضيف كاتب آخر، هو ريسكه وما ألفاه من مشقة عند تقديمه معلقة طرفة بن العبد ونجده لا يكتفي بهذين المثالين ليقدّم ثالثاً تمثّل في "هنجستنبرج" Hengstenberg، فهو ينظر إليه، كونه الناقد الذي لا يقبل نقده أي مبالغة فقد جاء عنه عندما قدم لشعر امرئ القيس، فعن زعم تسمية هذه القصائد بالمعلقات؛ لأدلة رآها هو فيصلاً في الموضوع مع الإقرار ببعض الاستثناء، في أن عرب الجاهلية عرفوا الكتابة في مناسبات قليلة، بقي جيل المستشرقين من أمثال من خاضوا بحثاً في موروثة الشعري كـ "هربلوا"، "ريسكه"، "ويليم جونز"، "ديساسي" إلى حد اليوم، لا يملكون عن أنفسهم استجلاء الحقيقة مستقبلاً.

فيرى أن تعليق القصائد ضرب ذلك بعد من الخرافة؛ لأنه قدم حولها أكثر من دليل، كان في غاية الرداءة، كما يضيف إلى خرافيتها شكلاً في صحتها، أن المؤرخين القدامى لم يتناولوا في كتابهم بشيء من التفصيل، ما له صلة بمكة وتاريخها أمثال: "الأزرقى" ولا حتى ابن هشام ويزيد أن المصادر الرئيسية العربية، لم تأت خبراً في الموضوع هذا ".....، كي نذكر أن المصادر الرئيسية عن تاريخ العرب وأساطيرهم الكلبى وابنه، لا يعلمون شيئاً عن ذلك الخبر كما أن الانتقاء طال النص القرآني المقدس والحكم نفسه يسحب عن التراث الديني وعدم إيذاء الرسول - صلى الله عليه وسلم -.

رأيه بشأن كهذا، دنيوي مس قدسية الكعبة الشريفة، يقرر ما فات كما أن المصادر الأدبية القديمة وكذا النقدية لم تأت ذكراً عن مثل هذا الخبر ولو كان هذا الخبر صحيحاً كان محمد قد أبدى رأيه في هذا الأمر....؛

أعني أن تكون مثل هذه القصائد الدنيوية قد علفت على أكبر حرم مقدس عند العرب.¹

"كذلك لا يذكر كتاب الأغاني أو في أي كتاب آخر في تاريخ الأدب العربي القديم أو من يستند إلى مصدر قديم"². لينتقل الكاتب من وصفه الأول، تعليق القصائد الجاهلية بالكعبة الشريفة من الخرافة إلى الأسطورة التي كان أول مصدر عربي يشير إليها، أحمد بن النحاس من دون ذكر توثيق لها الذي أنكر وجودها" بل أنه رفضها، على أنها لا أساس لها مطلقا هو أحمد بن النحاس في العهود المتأخرة، ابن خلدون في مقدمته والسيوطي المتوفي سنة 338 أو سنة 337³ وممن خاضوا بحثا في الموضوع هذا بعد بن النحاس في العهود المتأخرة، ابن خلدون في مقدمته والسيوطي في ملاحظة أوردها ومنتخبات دي ساسي (ج 2 ص: 480) أو في عنوان المخطوط رقم 68 بليدين: "من مدائح على باب الكعبة"⁴. الشك لا يفارق أحكاما أصدرها الكاتب.

إن آراء المتأخرين: ممن اقتحموا هذا المضمون، جاءت حججهم واهية لا تقوى هي على ترسيخ هذه الظاهرة كونها جاءت منافية لتصرفات العرب القدامى، ومما يفند زعمها حجج وفرضيات استندت إلى القوة وركنت إلى الإقناع بإنشاء النقيض لها، كما أن هناك رعيلا آخر من الباحثين، وهو ما أعطى صعوبة تحديد القصائد المعلقة الجاهلية، فالحصر العددي لحقه الاختلاف فمنهم من ذهب إلى سبعة وهناك من

¹ - السابق، ص: 35..

² - نفسه، ص: 35.

³ - نفسه، ص: 35.

⁴ - نفسه، ص: 35.

طرق رقم تسعة وأحكامهم دعامتها، افتراض هيئة تحكيم اتخذت من سوق عكاظ مرتكز التحديد لانتقائها.

"إن آخرين قد أشاروا إلى الصعوبة في اختيار هذه القصائد السبع أو التسع من بين القصائد الجديدة"، ويصدر الكاتب شأن هذه الهيئة النقدية العكاظية فالعربي بغيرته وحرصه على التفاخر يرفض مثل هذه الأحكام وهذه الاختيارات، لأنها قد تبدي تحيزها لجهة على حساب الأمصار الأخرى وهو ما يشرح عدم تثمين اعتزاز الجاهلي بانتمائيه القبلي وإعطائه حقه الذي يستأهله أما عن انعدام قرائن إثبات المعلقات بماء الذهب فترجع من جانبنا نحن ذلك إلى جنوح خيال الباحثين الأوروبيين ممن خاضوا في هذا الصدد: "إن هذا مجرد خيالات لعلماء أوروبيين"¹.

وينفي في نهاية المطاف دأب العرب الجاهلين على تعليق المكتوب على الكعبة: "وعلى وجه العموم لا يعرف شيء عن وجود عادة التعليق على الكعبة"².

ويذهب ابن النحاس إلى أن حمادا هو الذي قام بلم شتات المعلقات التسع من هنا يستبعد جمعها من قبل قدماء العرب، فالانتقاء من مجموع كثير من الشعر الجاهلي والتقدير والتثمين كان من قبل حماد الرواية فيما ذهب إليه من حكم المفضل الضبي وأبو عبيدة معمر بن المثنى: "وأيد حكمه هذا حكمان مختصان هما المفضل الضبي وأبو عبيدة معمر بن المثنى.

¹ - السابق، ص: 36.

² - نفسه، ص: 36.

وهو ما أشار إليه مؤلف "جمهرة أشعار العرب" نقراً ما يلي: "وقال المفضل: القول عندنا ما قاله أبو عبيدة في ترتيب طبقاتهم، وهو أن أول طبقاتهم أصحاب التسع معلقات، وهم: امرؤ القيس، وزهير والنابغة، والأعشى، ولييد وعمرو بن كلثوم، وطرفة بن العبد، قال المفضل: هؤلاء أصحاب التسع الطوال التي تسميها العرب بالسموط، ومن زعم غير ذلك، فقد خالف جمهور العلماء"¹.

فالحاصل، أن المعلقات سبعة ذكروا آخر ترتيب: امرؤ القيس، وزهير والنابغة والأعشى، ولييد، عمرو بن كلثوم، وطرفة بن العبد، ذلك تصنيف نقله صاحب جمهرة أشعار العرب عن المفضل الضبي والرأي نفسه يأخذ به أبو زيد القرشي في جمهرته، فالطبقة الأولى، جعلها لأصحاب السبع، تاليتها أصحاب الطبقات الست بتسمية متشابهة للأولى، فمن حماد الرواية تواتر أسماء: "السماط" و"المعلقات" فالتسمية الأولى سهل تذهنها، لوجه الشبه الذي يتوحد فيه حبات اللؤلؤ والقصائد الشعرية نظماً وتأليفا فيما بينها، وهو ما وجد انزياحه إلى المجال اللغوي النثري فهي مرصعة منضدة تتألف وتتسجم فيما بينها كحبات اللؤلؤ التي تشد بعضها بعضاً في إحكام وفن فتضفي تلك المسحة الجمالية الفنية فهو سواء بسواء في نظم الشعر وحبات عقد اللؤلؤ، على خلاف التسمية الثانية التي جاءت من باب الاحتياطية؛ إذ لا صلة بينها وبين مدلولها، كالاستعمال اللغوي العربي لم يورد السياقات، توظف هذا المدلول ليستسلم الكاتب ندلكه إلى ما ذهب إليه النقاد العرب من ذبوع الخطأ بكيفية واسعة.

¹ - السابق، ص: 37.

وقد توقفنا طويلاً عند هذه المسألة؛ إما لأنه يتجلى بوضوح كيف تكونت الأسطورة، وإما لأن القصائد التي تتعلق بها مهمة، ولأن الخطأ شائع الانتشار"¹.

ويخلص نودلكه، إلى أن ما لحق الشعر الجاهلي، بتغيير نصوص القصائد القديمة الجاهلية"² من تبديل وما حاق بها من تحريف وبرغم الاضطراب الذي شهدته روايته، بقيت هذه الشاعرية التي تبين مكنون الشعر، مكنون جسارة الشعر الجاهلي الذي كان انعكاساً للحياة البدوية للمجتمع العربي كموروث لا زال يشهد على خلوده إلى يومنا هذا"، على أن قوة الشعر العربي البدوي وجماله لم يضيعا"³.

خاتمة:

يبقى المستشرق نودلكه، من الباحثين الذين اعتنوا بدراسة الموروث الشعري اللغوي ولعل عنواناً من بين عناوين أبحاثه، توحى في جانبها المضاميني، وهو ما مثله، مؤلفه في: "سبيل فهم الشعر الجاهلي"، الذي أصدره، سنة أربع وستين وثمان ومائة بعد الألف، جاء رؤية إضافية وإطلالة أخرى مهما رفدت من محمول لتمظهراته المختلفة، تبقى في حاجة منا إلى الإقبال عليها والعودة إليها من منظور القراءة الواعية التي تقي الوقوع في شرك الغيرية يضيف إليه عنواناً آخر لمنتوج تحت اسم "الشعر الجاهلي"، عرف الإخراج سنة واحد وعشرين وتسع مائة بعد الألف وهو ما يوضح لنا نحن البحث الجاد من قبل هذا المفكر فهو يخوض في

¹ - نفسه، ص: 39.

² - نفسه، ص: 39.

³ - السابق، ص: 39.

الشعر الجاهلي بنسق متواصل ينبغي الإدلاء بدلوه فهل من مطلع؟ ! وهل من ناقد؟!

المراجع والمصادر المعتمدة للبحث:

- د / الأسد ناصر الدين، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، دار المعارف، ط.6، 1982.
- د / البدوي أمين عبد المجيد، القصة في الأدب الفارسي، دار المعارف، بدون طبعة، 1964.
- بدوي عبد الرحمن،
- د/ دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي، دار العلم للملايين، ط.1، 1979.
- د/ موسوعة المستشرقين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ببيروت، بدون طبعة، بدون تاريخ.
- د / إبراهيم علي أبو الخشب، تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، بدون طبعة، القاهرة، 1992.
- د/ جيمس مونرو، النظم الشفوي في الشعر الجاهلي، ت. فضل بن عمار العماري، دار الأصالة، ط.1، الرياض، 1987.
- د / طه حسين:
- في الأدب الجاهلي، دار المعارف، بدون طبعة، بدون تاريخ.
- الأدب العربي، العصر الجاهلي والعصر الإسلامي، دار العلم للملايين، مج.1، ط.4، بيروت، 1981.
- د/ عبد الرحمن عفيف، الشعر الجاهلي، حصاد قرن، دار جريز للنشر والتوزيع، ط.1، بدون بلد، 2007.
- د / عبد الغني يسري، ديوان قيس بن الملوّح، دار الكتب العلمية، ط.1، بيروت، 1999.
- ابن منظور، لسان العرب، نسقه وعلق عليه ووضع فهرسه علي شبري، دار إحياء التراث العربي، ط.1، بيروت 1988.
- ابن النديم، الفهرست، بدون طبعة، بدون تاريخ.

الدواوين الشعرية:

- د/ الأسكندراني محمد ونهاد رزوق، ديوان امرئ القيس، دار الكتاب العربي، بدون طبعة، بيروت، 2007.
 - د/ الحتي حنا ناصر، ديوان النابغة الذبياني، دار الكتاب العربي، بدون طبعة، بيروت، 2007.
 - د/ عبد الساتر عباس، ديوان النابغة الذبياني، دار الكتب العلمية، ط.1، بيروت، 2004.
 - عمرو بن كلثوم، دار الصادرة، بدون طبعة، بيروت، بدون تاريخ.
 - د/ ناصر الدين مهدي محمد:
 - - ديوان طرفة بن العبد، دار الكتب العلمية، ط. 2، بيروت، 2002.
 - - ديوان الأعشى الكبير، دار الكتب العلمية، ط.2، بيروت، 1993.
- دلالة التعبير بالألفاظ الفرائد في القرءان الكريم